المعجزاتُ والزمنُ

إنّ موضوعَ الإسراءِ والمعراجِ هو مِن الموضوعاتِ المتعلِّقةِ بالمناسباتِ الدِّينيةِ ، وهذه الموضوعاتُ لا نحتاجُ إلى سردِ وقائعِها بقَدْرِ ما نحتاجُ إلى استنباطِ الدروسِ والعِبَرِ منها .

بادئَ ذي بدءٍ الإسراءُ والمعراجُ هو معجزةٌ ثابتةٌ في الكتابِ والسُّنّةِ ، ولكنْ لا معنى للحديثِ عن المعجزاتِ التي هي خرقٌ للنواميسِ والعاداتِ ، وعن جزئيّاتِها ، وعن وقوعِها أو عدم وقوعِها إذا كان أصلُ الدِّينِ الذي يتلخّصُ في الإيمانِ بالله موجوداً ، وواحداً ، وكاملاً ، والإيمانِ بأنه بكلِّ شيءٍ عليمٌ ، وعلى كلّ شيءٍ قديرٌ ، وأنه فعّالٌ لما يريد ، إذا كان هذا الأصلُ محلَّ شكٍّ فلا معنى للحديثِ عن المعجزاتِ أصلاً ، فالقرآنُ الكريمُ يخاطبُ الناسَ بأصولِ الدِّينِ ، بوجودِ اللهِ عز وجل ، ويخاطبُ المؤمنين بفروعِ الدِّينِ ، ومعجزةُ الإسراءِ والمعراجِ من فروعِ الدينِ .

ثمّةَ حقيقةٌ أضعُها بين أيديكم ؛ إنّ الكونَ بمجرّاته وكازاراتِه ، بكواكبِه ومُذنّباتِه ، بالمسافة بين النجومِ ، بالسرعاتِ الضوئيّةِ ، بحجومِ النجومِ وسرعاتِها ، وبدورانِها وتجاذُبِها ، والأرضَ بجبالِها ووديانِها ، وسهولِها ، ببحارِها وبُحيراتِها ، بينابيعِها وأنهارِها ، بحيواناتِها

ونباتاتِها ، بأسماكِها وأطيارِها ، بمعادنِها وثرواتِها ، وإنّ الإنسانَ بعقلِه وعاطفتِه ، وأعضائِه وأجهزتِه ، بفطرتِه وطباعِه ، بزواجِه وذريّتِه ، هذه كلُّها معجزاتٌ ، وبشكلٍ مختصرٍ الكونُ بسماواتِه وأرضِه هو في وضْعِه الراهنِ مِن دونِ خرقٍ لنواميسِه ، ومن دونِ خروجٍ عن نظامِه هو في حدِّ ذاتِه معجزةٌ ، وأيُّ معجزةٍ ، والدليلُ قولُه تعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

[آل عمران : ١٩٠ـ ١٩١]

إنّ في خَلقِ السماواتِ والأرضِ من دونِ خرقٍ للنواميس معجزةٌ .

إنّ اللهَ خَلَقَ الكونَ بسماواتِه وأرضِه وخَلَقَ العوالِمَ ، وعلى رأسِها الإنسانُ وَفْقَ أنظمةٍ بالغةِ الدّقّةِ ، ومِن أبرزِ هذه الأنظمةِ نظامُ السَّبَبيّةِ ، وهو تلازمُ شيئين وجوداً وعدماً ، أحدُهما قبْل الآخرِ ، سمَّيْنَا الأولَ سبباً ، وسمَّيْنَا الثانيَ نتيجةً ، ومما يكمِّلُ هذا النظامَ الرائعَ أنّ العقلَ البشريَّ يقومُ على مبدإِ السَّبَبيّةِ ، أيْ : إنّ العقلَ لا يفهمُ حدثاً من دونِ سببٍ ، ومِن رحمةِ اللهِ بنا أنّ هذا النظامَ في الكونِ ، وذاك المبدأَ في العقلِ يقودُنا برفقٍ إلى معرفةِ اللهِ مسبِّبِ الأسبابِ ، فالأقدامَ تدلُّ على المسيرِ ، والماءُ يدلُّ على الغديرِ ، أفسماءٌ ذاتُ أبراجٍ ، وأرضٌ ذاتُ فِجاجٍ ، ألاَ تدلاَّن على الحكيمِ الخبيرِ ؟

ومِن رحمةِ الله بنا أيضاً أنّ تلازُمَ الأسبابِ مع النتائجِ يُضفي على الكونِ طابعَ الثباتِ ، ويمهِّدُ الطريقَ لاكتشافِ القوانينِ ، ويعطي الأشياء

خصائصَها الثابتةَ ليسهُلَ التعاملُ معها ، ولو لم تكن الأسبابُ متلازمةً مع النتائجِ ، ولو لم تكن النتائجُ بقدْرِ الأسبابِ لأخذَ الكونُ طابعَ الفوضى والعبثيّةِ ، ولَتَاهَ الإنسانُ في سبُلِ المعرفةِ ، ولم ينتفعْ بعقلِه ، لكنْ مِن اعتقدَ أنّ الأسبابَ وحدَها تخلُق النتائجَ ، ثمّ اعتمدَ على الأسبابِ وحدها فقدْ أشركَ ، لذلك يتفضَّل اللهُ على هذا الإنسانِ الذي وقعَ في الشركِ الخفيِّ فيؤدبُّه بتعطيلِ فاعليةِ الأسبابِ التي اعتمدَ عليها ، فيُفاجَأ بنتائجَ غيرِ متوقّعةٍ ، ومَن تركَ الأخذَ بالأسبابِ متوكِّلاً ـ في زعْمِهِ ـ على اللهِ فقد عصَى ، لأنه لم يعبأْ بهذا النظامِ الذي ينتظمُ الكون ، ولأنه طمعَ بغيرِ حقٍّ أن يخرِقَ اللهُ له هذه السننَ ، أمّا المؤمنُ الصادقُ فيأخذُ بالأسبابِ من دونِ أنْ يعتقدَ أنّها تصنعُ النتائجَ ، وبالتالي من دونِ أنْ يعتمدَ عليها ، يأخذُ بها ، وكأنّها كلُّ شيءٍ ، ويعتمدُ على اللهِ ، وكأنّها ليست بشيءٍ ، معتقداً أنه ما شاء اللهُ كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنّ الأسبابَ وحدها لا تقودُ إلى النتائجِ إلا بمشيئةِ اللهِ ، وهذا التوحيدُ الإيجابيُّ الذي يغيبُ عن كثيرٍ من المؤمنين ، فضلاً عن غيرِ المؤمنين ، قال تعالى :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يوسف : ١٠٦] .

قال علماءُ التفسيرِ : « هذا هو الشركُ الخفيُّ » ، لكنّ نظامَ السببيّةِ يُخرَقُ أحياناً ، فحينما يأتي إنسانٌ ويقول : إنّه رسولٌ مِن عندِ الله جاءَ ليبلِّغَ منهجَ الله عزوجلّ فلابدّ مِن أنْ يطالبَه الناسُ ببرهانٍ على أنه رسولُ الله ، وعلى أنّ الكتابَ الذي جاء به هو مِن عندِ الله ، وهنا تأتي المعجزةُ لتكونَ برهاناً على صدقِ إرسالِ النبيِّ ، ومصداقيةِ منهجِه ، قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [النساء : ١٧٤] .

قال علماءُ التفسيرِ : « البرهانُ هو المعجزةُ » .

والمعجزةُ في بعضِ تعاريفِها : « خرقٌ لنواميسِ الكونِ ولقوانينِه » ، ولا يستطيعُها إلا خالقُ الكونِ ، لأنه هو الذي وضعَ القوانينَ والنواميسَ ، يعطيها لرُسُلِه لتكونَ برهاناً على صدْقِهم في إرسالِهم ، وصدقِهم في إبلاغِهم عن ربِّهم ، والمعجزةُ مُمكِنةٌ عقلاً غيرُ مألوفةٍ عادةً ، فهناك فرقٌ بين أنْ يحكُمَ العقلُ على شيء باستحالتِه ، وأنْ يعلنَ عجزَه عن فهمِ هذا الشيءِ ، فعدمُ العلمِ بالشيءِ لا يلزم العلمَ بعدمِه .

هذه الحقيقةُ الأولى : أنّ الإسراءَ والمعراجَ معجزةٌ ، وهذا مكانُ المعجزةِ في هذا الدِّينِ العظيمِ .

ثانياً : تؤكِّدُ رواياتُ الإسراءِ والمعراجِ أنّ النبيَّ عليه الصلاةُ والسلامُ أُسْرِيَ به مِن مكّةَ إلى بيتِ المقدسِ ، ثمّ عُرِجَ به إلى السماءِ إلى سدرةِ المنتهى ، ثم عادَ إلى بيتِ المقدسِ ، ومنه إلى مكّةَ ، من دونِ أنْ تقتطعَ هذه الرحلةُ المديدةُ مِن الزمنِ شيئاً ، معنى ذلك أنّ اللهَ خالقُ الزمنِ ، والزمنُ مخلوقٌ ، فلا يُسألُ : متى كان اللهُ ؟ لأنّ الزمنَ مِن مخلوقاتِه ، وأنّ الزمنَ من خَلقِ الله ، يكونُ أو لا يكونُ ، أمّا نحن فما علاقتُنا بالزمنِ ؟ نحن زمنٌ ، الإنسان بضعةُ أيامٍ ، كلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه .

إنّ وقتَ الإنسانِ في الحقيقةِ هو عمرُه ، وهو مادّةُ حياتِه الأبديّةِ في النعيمِ المقيمِ ، ومادّةُ معيشتِه الضَّنكِ في العذابِ الأليمِ ، وهو يمرُّ مَرَّ

السحابِ ، فما كان مِن وقتِه للهِ وباللهِ فهو حياتُه وعمرُه ، وغيرُ ذلك ليس محسوباً من حياتِه ، وإنْ عاش فيه عيشَ البهائمِ ، فإذا قطعَ وقْتَه في الغفلةِ واللّهوِ والأمانيّ الباطلةِ ، وكان خيرُ ما قطعَه به النومَ والبطالةَ ، فموتُ هذا الإنسانِ خيرٌ له مِن حياتِه .

إنّ الوقتَ بالنسبة للإنسان عنصرٌ مهمٌّ ، إذا لم يكن محسوباً له بخيرٍ ، فهو محسوبٌ عليه بشرٍّ .

إنّ إدارةَ الوقتِ هو الاستنباطُ الثاني من معجزةِ الإسراءِ والمعراجِ .

إنّ إدارةَ الوقتِ هي في مجملِها تحديدُ هدفٍ ، ثم تحقيقُه ، وهذا في القرآنِ الكريمِ ، ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[الملك : ٢٢] .

لا شكّ أنّ مَن يمشي إلى هدفٍ وغايةٍ واضحةٍ أهدى ممّن يخبطَ خبْطَ عشواءَ ، هذه حقيقة .

والأدلّةُ على أهمّيةِ الوقتِ مبثوثةٌ في القرآنِ الكريمِ ، فقد أقسمَ اللهُ جل جلالُه بمطلقِ الزمنِ ، لهذا المخلوقِ المكرّمِ ، الذي هو في حقيقته زمنٌ ، قال سبحانه :

﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر : ١-٣] .

لقد أقسمَ اللهُ بمطلقِ الزمنِ ، لهذا المخلوقِ المكرَّمِ ، الذي هو في حقيقتِه زمنٌ ، أنه خاسرٌ لا محالة ، لماذا ؟ لأنّ مُضيَّ الزمن وحْدَه يستهلكُه ، فالإنسانُ في أدقِّ تعريفاتِه بضعةُ أيامٍ ، كلّما انقضى يومٌ انقضى

بضعٌ منه ، وما من يومٍ ينشقُّ فجْرُه إلا وينادي : يا ابنَ آدمَ ، أنا خَلْقٌ جديدٌ ، وعلى عملِك شهيدٌ ، فتزوَّدْ مني فإنِّي لا أعودُ إلى يومِ القيامةِ .

الآية الثانية :

﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فاطر : ٣٧] ، أيْ : لقد كانت أعمارُكم التي وهبناكم إيّاها بين أيديكم تكفي لِمَن أرادَ أنْ يتذكّرَ ، أو أرادَ أن يتفكّرَ ، أو أرادَ أنْ يعملَ صالحاً .

مِن هذا المنهجِ القرآنيِّ الكريمِ يمكنُ أنْ نستخلصَ أهمّيةَ الوقتِ للإنسانِ المسلمِ ، حيث ألقى اللهُ عليه مسؤوليةَ استغلالِ الوقتِ الاستغلالَ الأمثلَ ، الذي يحقِّقُ مرضاةَ اللهِ تعالى ، وفائدةَ الإنسانِ ، فالوقتُ عنصرٌ مهمٌّ ، يجبُ على الفردِ أنْ يتنبَّهَ إلى الاستفادةِ منه ، سواءٌ على مستوى الفردِ ، أو على مستوى الجماعة المسلمةِ ، هذا في الكتاب العزيز ، فماذا في السنة الشريفة ؟

عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ ؟ »[١] .

ومِن حديثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ : الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ »[٢] .

---

(١) الترمذي (٢٤١٦) .

(٢) البخاري (٦٠٤٩) ، الترمذي (٢٣٠٤) ، ابن ماجه (٤١٧٠) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال : « اِغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ : شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ »[١] .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنْ قَامَتْ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لاَ يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ »[٢] .

تؤكِّدُ السُّنّةُ النبويّةُ الشريفةُ على أهمّيةِ أنْ يستغلَّ الإنسانُ الوقتَ في مراحلِ حياتِه المختلفةِ ، بدايةً من الصِّغرِ ، وحتى تتقدّمَ به السنُّ ، كما تتّسعُ هذه الأهمّيةُ لتشملَ أهمّيةَ استفادةِ الفردِ ليس فقط من وقتِ العملِ ، بل من وقتِ الفراغِ بعدَ الانتهاءِ من العملِ .

يؤكِّدُ بعضُ العلماءِ منذ زمنٍ قديمٍ أنّ الوقتَ يمرُّ بسرعةٍ محدَّدةٍ وثابتةٍ ، فكلُّ ثانيةٍ أو دقيقةٍ ، وكلُّ ساعةٍ تشبهُ الأخرى ، وأنّ الوقتَ يسيرُ إلى الأمامِ بشكلٍ متتابعٍ ، وأنّه يتحرّكُ وَفق نظامٍ معيّنٍ محكَمٍ ، لا يمكن إيقافُه أو تغيُّرُه أو زيادتُه أو إعادةُ تنظيمِه ، وبهذا يمضي الوقتُ بانتظامٍ نحو الأمامِ دون تأخيرٍ أو تقديمٍ ، ولا يمكنُ بأيِّ حالٍ من الأحوالِ إيقافُه أو تراكمُه أو إلغاؤُه أو تبديلُه ، الوقتُ هو الحياةُ ، وهذا معنًى مشتركٌ يعرفه الناسُ جميعاً ، ولكنّ الإسلامَ زاد على ذلك المعنى حين جعلَ الوقتَ بمنزلةِ رأسمالٍ يحاسَبُ عليه الإنسانُ ، ولكنّ الوقتَ يزيد على المالِ ، فالمالُ يُدَّخر ، ويقايَضُ عليه ، وقد يعوَّضُ إذا أُهدِرَ ، ولكنّ

---

(١) الحاكم في المستدرك (٧٨٤٦) ، مصنف ابن أبي شيبة (٣٤٣١٩) ، البيهقي في شعب الإيمان (١٠٢٤٨) .

(٢) أحمد في المسند (١٣٠٠٤) .

الوقتَ لا سبيلَ إلى ادّخارِه ، ولا إلى مقايضتِه ، ولا إلى استرجاعِه ، إضافةً إلى ذلك أنّ الوقتَ هو المورِدُ الوحيدُ الذي نرغَمُ على صرفِه ، سواء أردنا أم لم نردْ .

كانت هذه الحقائقُ نبذةً عن قيمةِ الوقتِ ، فماذا عن قيمةِ الوقتِ في حياةِ مسلمي زمانِنا ؟

يبدو أنّ المورِدَ الأكثرَ تبديداً في ثرواتِهم هو الوقتُ ، وإذا نظرْنا إلى المُمْسِكين بطرفِ الحضارةِ اليومَ رأينا أنهم يستثمرون أوقاتَهم في الشرِّ والخيرِ بدقّةٍ محسوبةٍ ، فما هو السببُ في هذا التبايُنِ ؟ إنه بالتأكيدِ ليس راجعاً إلى فروقٍ عنصريةٍ ، أو صفاتٍ جسمانيةٍ أو ذهنيةٍ أو موروثةٍ ، بل لأنّ الغربَ استطاع أنْ يضعَ وينفّذَ نظاماً تربوياً يبثُّ في أبنائِه مِن خلالِه ضمنَ ما يبثُّ مبادئَ إداريةً فعّالةً ، قام عليها نظامٌ حياتيٌّ تمارَسُ فيه أسسٌ إداريةٌ سليمةٌ ، بل أصبحتْ هذه الأسسُ والمبادئُ علوماً قائمةً بذاتها ، لها فروعٌ وفنونٌ تسمَّى العلومَ الإداريةَ ، ويبرزُ مِن هذه العلومِ فرعٌ كبيرٌ اسمُه إدارةُ الوقتِ ، إدارةُ الوقتِ أعلى مستويات التقدّمِ ، فمن خلال هذا العلم ، التقدُّم أحسن ما تملك بأقل ما تملك .

هناك مؤشِّراتٌ مَرَضِيّةٌ تعبِّرُ عن سوءِ إدارةِ الوقتِ :

هل تردِّدُ كثيراً : « ليس لديَّ وقتٌ لإنجازِ ما أودُّ القيامَ به ؟ » .

هل تتأخَّرُ دائماً عن مواعيدك ؟

هل تأخذُ المهمَّاتُ التي تقومُ بها وقتاً أكبرَ مما تحدِّدُه لها ؟

هل تتضارب مواعيدك مع بعضها بعضاً ؟

هل تقْدِم على تنفيذ العمل الذي تحبه أو الأكثر إلحاحاً على العمل الأهم ؟

هل تفاجئُك الأزماتُ ، وبعدها تتصرّفُ ، وتتّخذُ الإجراءاتِ بحسب ما يتّفقُ لك ، وتسمحُ به الظروفُ ، وليس كما تخطِّطُ لها ؟

إنّ اعترافَ المرءِ بأنّ العيبَ في ذاتِه هو أولُ خطوةٍ على الطريقِ الصحيحِ ، ولعلك إذا كنتَ تنتظرُ مِن هذا الموضوعِ أنْ نرشدَك إلى أدواتِ خارجَ ذاتك إلى إدارةِ وقتك ، إذا كان الأمرُ كذلك ، فانتبهْ إلى أنّ أهمَّ الممتلكاتِ التي تمتلكها هي الوقتُ ، إنه موردٌ محدّدٌ يملكه الجميعُ بالتساوي ، مع أنّ الناسَ لم يولَدوا بقدراتٍ أو فُرصٍ متساويةٍ ، إنهم جميعاً يملكون الأربعَ والعشرينَ ساعةً نفسَها كلَّ يومٍ ، ويملكون الاثنين والخمسين أسبوعاً كلَّ عامٍ ، وهكذا ، فإن جميعَ الناسِ متساوون في ناحيةِ المدّةِ الزمنيةِ ، سواءٌ أكانوا من كبارِ الموظفين أم من صغارهم ، من أغنياءِ القومِ أم من فقرائهم ، فالمشكلةُ ليست في مقدارِ الوقتِ لكلٍّ من هؤلاء ، ولكنّ المشكلةَ في طريقةِ إدارةِ الوقتِ .

لابد من وِقفةٍ متأنّيةٍ مع إدارةِ الوقتِ الذي لا نملكُ غيرَه ، حتى مَن يحرِّكون النظامَ العالميَّ الجديدَ أو القديمَ لا يملكون من الوقتِ إلاّ ما نملكه نحن ، نحن نتحدّثُ عن إدارةِ بيتِك ، وإدارةِ عملِك ، نتحدّث عن هدفِك أنت ، وطموحِك أنت .

هل الوقتُ هو المشكلةُ ؟ لا واللهِ ، نحنُ المشكلةُ ، يجب أنْ نوقنَ أنّ العيبَ فينا ، لا في ضيقِ الأوقاتِ .

المخلصون الجادّون في حياتهم يسهرون كثيراً على إنجازِ أعمالهم ، ويتفانَوْن في ذلك ، ولكنْ ربّما يُحسِنُ بعضُهم استثمارَ وقتِه ، ولا يدركُ أنّه بقدرٍ من المعرفةِ والممارسةِ يمكنه أنْ يحقّقَ نتائجَ أفضلَ ، مثلَ غيره أو أكثرَ ، ليس بالضرورةِ أن تكون مديراً أو موظفاً كبيراً ، فقد يكون من يسيء استخدامَ الوقتِ قائماً على رأسِ عملٍ دعويٍّ ، أو طالبَ علمٍ أو ربّةَ منزلٍ في منزلها ، المرضُ واحدٌ ، وقواعدُ العلاجِ واحدةٌ ، فالمهامُّ الكثيرةُ المتنوّعةُ غيرُ المتجانسةِ يصلحُ لها جميعاً أنْ تديرَ الوقتَ إدارةً حكيمةً ، لأنّ الوقتَ هو أنت ، الإنسان بضعةُ أيامٍ ، كلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه .

أمّا إذا كان الإنسانُ لا يستطيعُ السيطرةَ على وقته فهو بحاجةٍ إلى إدارةٍ أخرى ، بحاجة إلى إدارةٍ ذاته قبْل أنْ يديرَ وقتَه ، وقد ضرب النبيُّ ﷺ مثلاً أعلى رائعاً في حسْنِ استغلالِ الوقتِ وإدارتِه ، وسيرتُه كلُّها تشهد بذلك ، لقد كان حريصاً أشدَّ الحرصِ على أنّ تنتهجَ أمّتُه ذلك ، فوجَّهَها في أكثرَ من حديثٍ إلى أهمّيةِ الوقتِ ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعاً هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلاَّ فَقْراً مُنْسِياً ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِياً ؟ أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً ؟ أَوْ هَرَماً مُفَنِّداً ؟ أَوْ مَوْتاً مُجْهِزاً ؟ أَوْ الدَّجَّالَ ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ ، أَوْ السَّاعَةَ ؟ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ »[1] .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ : « أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنْكِبِي فَقَالَ : كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ ، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ

(١) الترمذي (٢٣٠٦) ، الحاكم (٧٩٠٦) ، الطبراني (٣٩٤٥) .

يَقُولُ : « إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ »[١] .

وأراد النبي ﷺ أنْ يعلِّمَ أصحابَه درساً مع الوسائلِ المُعِينةِ كما تسمى اليوم ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : « خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خَطًّا مُرَبَّعاً ، وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسَطِ خَارِجاً مِنْهُ ، وَخَطَّ خُطَطاً صِغَاراً إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسَطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسَطِ ، وَقَالَ : هَذَا الإِنْسَانُ ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ ، أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ ، وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ ، وَهَذِهِ الْخُطَطُ الصِّغَارُ الأَعْرَاضُ ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا ، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا »[٢] .

هذه الأحاديثُ وغيرُها كثيرٌ دليلٌ على أهمّيةِ الوقتِ في حياةِ المسلمِ ، كما وضّحه جلياً رسولُ الله ﷺ .

* * *

قصة معبّرة

إليكم هذه القصةَ القصيرةَ التي تعدُّ تطبيقاً لِمَا سبق .

أحدُهم له طفلٌ صغيرٌ ، صحّتُه ليست على ما يُرامُ ، يقولُ : قرّرتُ الذهابَ به إلى المستشفى ، حملتُه ، وذهبتُ ، لقد كان المنتظرون كثيرين ، ربما نتأخّرُ أكثرَ من ساعةٍ ، أخذتُ رقماً للدخولِ على الطبيبِ ،

---

(١) البخاري (٦٠٥٣) ، الترمذي (٢٣٣٣) ، أحمد (٤٧٦٤) .
(٢) البخاري (٦٠٥٤) .

وتوجّهتُ بالجلوسِ في غرفةِ الانتظارِ ، وفي غرفةِ الانتظارِ وجوهٌ كثيرةٌ مختلفةٌ ، فيهم الصغيرُ ، وفيهم الكبيرُ ، الصمت يخيِّمُ على الجميعِ ، هناك عدد من الكراسي الصغيرةِ استأثرَ بها بعضُ المنتظرين ، أَجَلْتُ طَرْفي في الحاضرين فمنهم مغمضُ العينين ، لا تعرفُ فيما يفكّر ، والآخرُ يتابعُ النظرَ إلى الجميع ، والكلُّ تشعرُ مِن وجوهِهم القلقَ والملَلَ من الانتظارِ ، يقطعُ السكونَ الطويلَ صوتُ المنادي برقم كذا ، الفرحةُ تعلو على وجهِ المنادى عليه ، يسير بخطواتٍ سريعةٍ ، ثم يعودُ الصمتُ للجميعِ ، لَفَتَ نظري شابٌّ في مقتبلِ العمرِ لا يعنيه أيُّ شيءٍ حوله ، لقد كان معه مصحفٌ صغيرٌ يقرأُ فيه ، لا يرفع طَرْفَه ، نظرتُ إليه ، ولم أفكّر في حالِه كثيراً ، لكنني حينما طال انتظاري عن الساعةِ الكاملةِ تحوّلَ نظري إليه من مجرَّدِ نظرٍ إلى تفكيرٍ عميقٍ في أسلوبِ حياته ، ومحافظتِه على الوقتِ ، إنها ساعةٌ كاملةٌ من عمري ، ماذا انتفعت بها ؟ أنا بلا عمل ، بل أنا في انتظارٍ وملَلٍ ، أذّنَ المؤذِّنُ لصلاةِ المغربِ ، ذهبنا إلى الصلاةِ ، وفي مصلى المستشفى حاولتُ أنْ أكونَ في جوارِ صاحبِ المصحفِ ، وبعد أنْ أتمَمْنا الصلاةَ سرتُ معه ، وأخبرتُه بإعجابي من محافظته على وقته ، وكان حديثُه يتركّزُ على كثرةِ الأوقاتِ التي لا نستفيدُ منها إطلاقاً ، وهي أيامٌ وليالٍ تمضي من أعمارنا دون أن نشعر بها ، ودون أن ننتفعَ بها ، قال : إنه أخذَ مصحفَ الجيبِ منذ سنةٍ عندما حثّه صديقٌ له على المحافظةِ على وقته ، وأخبرني أيضاً أنه يقرأ في الأوقاتِ التي لا يستفادُ منها أضعافَ ما يقرأ في المسجدِ أو في المنزل ، بل إنّ قراءته في المسجدِ زيادةٌ على الأجرِ والمثوبة ـ إن شاء اللهُ ـ تقطعُ عليه الملَلَ والتوترَ ،

وأضاف محدثي قائلاً : إنه الآن في مكانِ الانتظارِ منذ ما يزيد على الساعةِ والنصفِ ، ولم يشعرْ بها إطلاقاً ، وسألني : متى تجد ساعةً ونصفاً لتقرأ فيها القرآن الكريم ؟ كم من شخصٍ سيفعلُ ذلك ؟ وكم من أجرٍ عظيم يكونُ للدّالِ على ذلك ؟

تأملتُ كم من الأوقاتِ تذهبُ سدىً ، وكم من لحظةٍ من حياتنا تمرُّ ولا نحسبُ لها حساباً ، بل كم من شهرٍ ، بل كم من عام يمضي ولا نقرأُ القرآنَ الكريمَ ؟ أجَلْتُ ناظري ، فوجدتُ أنني محاسبٌ عن كل وقتٍ يضيعُ سدًى .

* * *

السمكةُ الطَّبيبةُ

كان أحدُ علماءِ البحارِ يركبُ غوَّاصةَ أبحاثٍ تحتَ سطحِ البحرِ ، لَفَتَ نظَرَه سمكةٌ كبيرةٌ خرجتْ مِن سرْبِها ، واتجهتْ إلى سمكةٍ صغيرةٍ ، فتصوَّرَ كما هي العادةُ أنّ هذه السمكةَ الكبيرةَ توجَّهت إلى الصغيرة لتأكلَها ، ولكنه وَجَدَ أنها وَقَفَتْ إلى جانبها ، وبدأتِ السمكةُ الصغيرةُ تأكلُ مِن حراشفِ الكبيرةِ ، فسَجَّلَ عنده هذه الظاهرةَ .

بعد عشرةِ أعوامٍ تقريباً اكتُشِفَتْ حقيقةٌ رائعةٌ ، هي أنّ هذه السمكةَ الصغيرةَ مُتَخَصّصةٌ في علاجِ أمراضِ الأسماكِ كلِّها ، وكأنَّ عهداً وميثاقاً غيرَ مكتوبٍ بينَ أسماكِ البحرِ يقرِّرُ أنّ هذه السمكةَ الصغيرةَ ، المتخصّصةَ في مداواةِ أمراضِ السَمَكِ الخارجيّةِ لا ينبغي أنْ تُؤْكَلَ ، لذلك أُجْرِيَتْ بحوثٌ كثيرةٌ ، وتَتَبَّعَ العلماءُ مواطنَ هذا السمكِ ، الذي أَعْطَوْه اسماً خاصًّا .

هذا السمكُ جعلَ اللهُ عز وجل غذاءَه على التقرّحاتِ والإنتاناتِ ، والطُّفَيْلِيَّاتِ ، والفطريَّاتِ التي تَتَوَضَّعُ على حراشفِ الأسماكِ الكبيرةِ ، فالأسماكُ الكبيرةُ تتجهُ إليها لتعالجَها من أمراضِها ، وكأنّ هناك عُرفاً وامتناناً .

بل إنّ بعضَ الحالاتِ الغريبةِ التي سُجِّلتْ ، وصُوِّرَتْ ، أنّ سمكةً كبيرةً كانتْ تشكُو قرحةً في فَمِها ، فإذَا بها قد فتحتْ فَمَهَا ، ودخلتْ السمكةُ الممرِّضةُ آمنةً مطمئنةً ، لتعالِجَها مِن هذه القروحِ ، وفي الوقتِ نفسِه هاجمتْ هذه السمكةَ ـ التي تُعالَج ـ سمكةٌ أكبرُ منها لتأكلَها ، فما كان منها إلا أنْ أخرجتْ مِن فمِها هذه السمكةَ التي تمرِّضُها ، وَوَلَّتْ هاربةً .

ما هذا العُرف ؟ وما هذا العَقدُ ؟ وما هذا الميثاقُ ؟ وما هذا القانونُ المتَّبَعُ في كلِّ أنحاءِ البحارِ ؟ إنّ هذه السمكةَ التي خَلَقَها اللهُ مزوّدةٌ بمنقارٍ دقيقٍ دقِيقٍ يصلُ إلى أدقِّ الثنايا ، وإنّ جهازَها الهضميَّ يتقبَّلُ الفطريّاتِ ، والتقرّحاتِ ، والإنتاناتِ ، وما شاكلَ ذلك ، وهو غذاءٌ لها ، وإنّ هذه الأسماكَ الكبيرةَ تتّجهُ إليها حينما تشكُو مِن تقرحاتٍ ، بسببِ ما يحدثُ بين الأسماكِ مِن احتكاك ، أو من معاركَ أحياناً .

الشيء الذي يلفتُ النظرَ أنه إذا كثُرتْ هذه الأسماكُ أمامَ السمكةِ الصغيرةِ ، صفّ بعضُها وراءَ بعضٍ ، وكأنّها مجتمعٌ متحضِّرٌ ؛ ليس هناك تزاحمٌ ، ولا تدافعٌ ، ولا سِبابٌ ، وقفتْ هذه الأسماكُ الكبيرةُ ، وقد سَجَّلتْ هذه الصورةُ بضعَ عشراتٍ مِن الأسماكِ ، يقفُ بعضُها وراءَ

بعضٍ ، تنتظرُ دَوْرَها في المعالجةِ ، وقد تستغرقُ المعالجةُ دقيقةً ، أو أكثرَ ، ثمَّ تنصرفُ إلى سبيلِها .

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان : ١١] ، مَن أعلمَ السمك جميعاً أنّ هذه السمكةَ لا تُؤْكَلُ ، ولا يُعتَدَى عليها ، فإنها تقوم بمهمةٍ نبيلةٍ ، مَن أَعْلَمَهَا ؟ هل هذه الأسماكُ عاقلةٌ ؟ قال تعالى :

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه : ٤٩ـ٥٠] .

* * *